الأبعاد التداولية للإشاريات في وعد الله تعالى لبني إسرائيل في سورة الإسراء

The Pragmatic Dimensions of Deixis in Allah's Promise to the Children of Israel in Surah Al-Isra

طالب الدكتوراه: إبراهيم حنانه

hennana-brahim@univ-eloued.dz

قسم الحضارة ـ الوادي (الجزائر)

مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية ، جامعة الوادي.

تاريخ الإيداع: 2025/01/29 تاريخ القبول: 2025/06/29 تاريخ النشر: 2025/09/15

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى بيان الأبعاد التداولية للإشاريات الواردة في وعد الله تعالى لبني إسرائيل المذكور في سورة الإسراء؛ من الآية الرابعة إلى الآية الثامنة، مبينا أصنافها، ودورها في تكوين المعنى وتوجيه الخطاب، وهي ثلاثة أصناف؛ إشاريات شخصية، وإشاريات مكانية، وإشاريات زمانية، أوضح المقال إسهامها في تشكيل بنية حجاجية متماسكة تربط بين الأفعال (الإفساد) والنتائج (العقاب)، وتعزز قوة الخطاب الإقناعية، ودورها في تعزيز مصداقية الخطاب من خلال ربطه بأحداث تاريخية وأماكن معروفة.

الكلمات المفتاحية: الإشاريات، التداولية، وعد الله، بني إسرائيل، سورة الإسراء، السياق.

Abstract:

This article aims to clarify the pragmatic dimensions of deixis in Allah's promise to the Children of Israel mentioned in Surah Al-Isra, from verses 4 to 8. It examines their categories and their role in shaping meaning and directing discourse. These categories include personal deixis, spatial deixis, and temporal deixis. The article highlights their contribution to forming a coherent argumentative structure that links actions (corruption) to consequences (punishment), enhancing the persuasive power of the discourse. Additionally, it discusses their role in strengthening the credibility of the message by connecting it to historical events and well-known locations.

Keywords: Allah's Promise, Children of Israel, Context, Deixis, Pragmatics, Surah Al-Isra.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على النبي محمد الصادق الأمين؛ وآله وصحبه أجمعين، وبعد

معلوم أن الإشاريات تندرج ضمن تداولية الدرجة الأولى التي تعنى بدراسة علامات لغوية يتحدد معناها في سياق الخطاب، فهي لا تدل على معنى في ذاتها، لكن السياق الذي تلفظ فيه هو الذي يحدد معناها، وقد برزت في أعمال النحويين العرب على أنها المبهمات؛ وهي ثلاثة أصناف: الإشاريات الشخصية، الإشاريات المكانية، والإشاريات الزمانية، ويُعبَّرُ عنها بالأنا، والهنا، والآن، ووظيفتها الإحالة إلى المتكلم، والمخاطَب، والإطار الزماني والمكاني للحدث اللغوي؛ وبناء على ذلك فإن للإشاريات دورا بالغ الأهمية في استجلاء المعنى وبيان مقاصد المتكلم، ودور آخر في تحقيق التماسك النصي؛ فهي من جهة تحيل على مراجع مقامية بالدرجة الأولى، ومن جهة أخرى فهي تؤدي وظائف نحوية داخل التركيب اللغوي، مما يجعلها عنصرًا لا غنى عنه في تكوين بنية الخطاب وتحقيق الترابط بين أجزائه؛ وعلى ذلك فإن فهم النص وتفسيره يتوقف بشكل كبير على قدرة المتلقي على فك شفرة هذه الإشاريات وإدراك مراجعها في السياق الذي وردت فيه.

ولقد أنجزت الكثير من الدراسات التداولية حول الإشاريات في القرآن الكريم، ويأتي هذا المقال مضافا إلى تلك الدراسات، ومكملا لها وذلك بتركيزه على موضوع مهم وارد في أول سورة الإسراء من الآية الرابعة إلى الآية الثامنة؛ وهو وعد الله تعالى لبني إسرائيل، حيث يدرس هذا المقال الإشاريات الواردة في تلك الآيات دراسة تداولية منطلقا من الإشكالية التالية: ما الأبعاد التداولية للإشاريات في وعد الله لبني إسرائيل في سورة الإسراء؟ وإجابة على هذه الإشكالية قسمت المقال بعد المقدمة إلى ثلاثة فروع؛ الأول في الإشاريات الشخصية، والثاني في الإشاريات المكانية، والأخير في الإشاريات الزمانية، وقد تجنبت فيه الإطالة في التعريفات النظرية للإشاريات؛ فهي متوفرة في غالب المراجع، حتى اشتهرت لدى كل باحث له عناية بالدراسات التداولية، وإنما يكفي عرض أهم التعريفات المشتهرة في مؤلفات التداولية، وانتقاء تعريف من بينها، وأما الدراسات السابقة؛ فإن الباحث لم يتوصل إلى أي دراسة سابقة للإشاريات تتعلق بموضوع هذا المقال.

الفرع الأول: تعريف الإشاريات وضوابط دراساتها تداوليا في القرآن الكريم

أولا: أصل المصطلح وبعض ترجماته

الإشاريات هي الترجمة العربية الأكثر استعمالا للمصطلح الإنجليزي Deixis وهذه الكلمة مشتقة من الكلمة اليونانية deiknunai التي تعني الإظهار والعرض[1]، ومن ترجمات مصطلح Deixis الأنجليزي؛ جاء في الترجمة العربية لكتاب "التداولية" لجورج يول(George Yule) مصطلح "التعبير التأشيري".[2]

ثانيا: تعريف الإشاريات تداوليا

للإشاريات عدة تعريفات عربية منها:

ـ "تُعَدُّ الإشاريات ألفاظا دالة على عناصر غائبة حاضرة".[3]

ـ الإشاريات هي "العناصر اللغوية التي تحيل مباشرة على المقام من حيث وجود الذات المتكلمة أو الزمن أو المكان، حيث ينجز الملفوظ، والذي يرتبط به معناه".[4]

ـ الإشاريات هي "العلامات اللغوية التي لا يتحدد مرجعها إلا في سياق الخطاب التداولي لأنها خالية من أي معنى في ذاتها".[5]

والظاهر أن التعريف الثاني هو التعريف الأقرب للصواب العلمي؛ إذ يمكن القول إنه الأكثر شمولية ودقة للأسباب الآتية:

1. أنه يوضح الطبيعة اللغوية للإشاريات بقوله: الإشاريات هي "عناصر لغوية".

2. أنه ينص على الوظيفة الإحالية للإشاريات في عبارته "تحيل مباشرة على المقام".

3.أنه يحدد العناصر الرئيسة التي تدل عليها الإشاريات وهي: الذوات المتكلمة (المخاطِب والمخَاطب)، الزمان، والمكان.

4. أنه ينص على أهمية السياق في تحديد معنى الإشاريات بربطها بسياق إنجاز الملفوظ.

أما التعريف الأول فهو تعريف مختصر، يفتقر إلى بيان بعض الجزئيات الضرورية التي تغني عن شرحه، وأما التعريف الأخير، فعلى الرغم من صحته، إلا أنه أقل شمولية من سابقه، فهو يركز فقط على ارتباط المرجع بسياق الخطاب التداولي.

ثالثا: ضابط الدراسة التداولية للإشاريات في القرآن الكريم

قلنا: إن الإشاريات الشخصية هي عناصر لغوية دالة على شخص ما، ممثلة في ضمائر الحاضر التي هي ضمائر المتكلم (أنا ونحن)، وضمائر المخاطب بكل صورها؛ المفرد والمثنى والجمع، مذكرا كانت أم مؤنثة، وبين ضمائر المتكلم وضمائر المخاطب يتشكل الخطاب؛ فالضمير أنا يشير إلى المتكلم أي المرسل، والضمير أنت يشير إلى المتلقي، وبتشكل الخطاب تتحقق الفاعلية في اللغة؛ "حيث تلعب الضمائر دور تحويل اللغة إلى ممارسة ونشاط فردي من خلال الاستعمال؛ حيث إن المتكلم حين يملك اللغة ويتحكم فيها يجعلها من إمكاناته،

وينصب نفسه في مرتبة عالية ضمن العملية التخاطبية، ولا يتحدث إلا لشخص ينصبه أمامه"[6]وهذا ما صرح به مانغونو (Maingueneau)قائلا: «...فكل متكلم يُرجع نظام اللغة لفائدته، فـ "أنا" و"أنت" ليستا علامات لغوية لنمط خاص من المهمات، إنها قبل كل شيء عوامل تحويل اللغة إلى خطاب»[7] وعلى هذا فإن الدراسة التداولية للإشاريات خاصة الإشاريات الشخصية (الضمائر) في أي سورة من القرآن الكريم، لا بد أن تجيب عن هذه الأسئلة؛ من المتكلم؟ ومن المخاطَب؟ وما الغرض من الكلام؟ وفي أثناء ذلك تتعامل مع القرآن الكريم على أنه وحي من الله تعالى؛ تعاملا يراعي أمرين هامين؛ الأول أن يحفظ القداسة والعظمة لمقام الربوبية(المتكلم)، والاعتراف بالعبودية في حق المخاطَب، والثاني أن استجلاء دلالات وأغراض الخطاب الإلهي يكون بما لا يحيد عن مراد الله تعالى لأنه المتكلم بالحق كلاما معجزا، سواء طبقت على هذا النص القرآني مناهج لغوية تراثية أم مناهج لسانية حديثة.

الفرع الثاني: الإشاريات الشخصية في وعد الله لبنبي إسرائيل في سورة الإسراء

عرفنا أن الإشاريات الشخصية هي ضمائر تدل على "الأنا"؛ والضمائر في العربية ترد منفصلة، أو متصلة، أو مستترة؛ وأما الآيات المدروسة من سورة الإسراء فلقد وردت فيها ضمائر تشير إلى لفظ الجلالة (الله) جل ثناؤه، وأخرى تشير إلى بني إسرائيل، وثالثة وهي الأخيرة ضمائر تشير إلى عباد الله تعالى المبعوثين على بني إسرائيل؛ وفي هذا الفرع نسلط الضوء ابتداء على بيان أنواع الضمائر في العربية، ثم ندرس تداوليا الضمائر الواردة في الآيات موضوع المقال.

1 ـ الضمائر في العربية

إذا نظرنا في الضمائر في العربية نجد أ نها ترد منفصلة، أو متصلة، أو مستترة؛ وتفصيلها في ما يلي:

1 ـ1 الضمائر المتصلة:

الضمائر المتصلة في العربية على ثلاثة أنواع:

أ ـ ضمائر اتصلت بآخر الأفعال، تكون في محل رفع فاعل، أو في محل نصب مفعول به.

فأما التي تكون في محل رفع فاعل فهي:

- تاء المتكلم، وتاء المخاطب، ومثالها: دخلتُ، دخلتَ، دخلتِ.
- ألف الاثنين، ومثالها: دخلاَ.
- واو الجماعة، ومثالها: دخلوا.
- نون النسوة، مثالها: دخلنَ.
- ياء المخاطبة، ومثالها: ادخُلِي.

وأما التي تكون في محل نصب مفعول به فمثالها: أكرمني ربي، ربك الذي أكرمكَ، أكرمه ربه...الخ.

ب ـ ضمائر اتصلت بالأسماء: تعرب في محل جر بالإضافة؛ ومثالها: ربي الله، ربكم الله، ربهم الله.

ج ـ ضمائر اتصلت بحروف الجر، وتعرب في محل جر بالإضافة؛ ومثالها: لنا، لكم.

1 ـ 2 الضمائر المنفصلة:

وتنقسم الضمائر المنفصلة بحسب مدلولها، وبحسب موقعها من الإعراب إلى قسمين:

أ ـ ضمائر الرفع المنفصلة:

1. ضمائر الرفع المنفصلة الدالة على المتكلم: أنا، نحن.
2. ضمائر الرفع المنفصلة الدالة على المخاطب: أنتَ، أنتِ، أنتما، أنتم، أنتن.
3. ضمائر الرفع المنفصلة الدالة على الغائب: هو، هي، هما، همْ، هم.

ب ـ ضمائر النصب المنفصلة:

1. ضمائر النصب المنفصلة الدالة على المتكلم: إياي، إيانا.
2. ضمائر النصب المنفصلة الدالة على المخاطب: إياكَ، إياكِ، إياكما، إياكم، إياكن.
3. ضمائر النصب المنفصلة الدالة على الغائب: إياهُ، إياها، إياهما، إياهم، إياهن.

1 ـ 3 الضمائر المستترة

وهي ضمائر مقدرة اتصلت بالفعل من غير أن تظهر لفظا ولا خطا، ويقدر هذا الضمير باختلاف أزمنة الفعل؛ فهو مع فعل الأمر يقدر "أنت" ومع الفعل المضارع يختلف بحسب اختلاف حروف المضارعة، ومن الضمائر المستترة؛ المستتر وجوبا نحو أنا، أنت، نحن، ومنها المستتر جوازا نحو هو، هي.

2 .الإشاريات الشخصية الدالة على (الله) جل ثناؤه:

الضمائر الدالة على الله جل ثناؤه في هذه الآيات الخمس نوعان؛ ضمائر متصلة، وأخرى مستترة، ولم يرد في هذه الآيات الخمس من الضمائر المنفصلة ضمير يدل على (الله) جل ثناؤه.

2 ـ 1 الضمائر المتصلة الدالة على الله عز وجل: وهي نوعان

2 ـ 1 ـ 1 . ضمائر اتصلت بالأفعال:

وهي ضمير الجمع المتكلم (نا) اتصل بسبعة أفعال ماضية وهي: قضى، بعث، ردَّ، أمدَّ، جعل، عاد، جعل؛ فجاءت صيغها هكذا: قَضَيْنَا، بَعَثْنَا، رَدَدْنَا، أَمْدَدْنَاكُمْ، جَعَلْنَاكُمْ، عُدْنَا، جَعَلْنَا؛ وهي تحيل إلى الله عز وجل، وإخبار الله تعالى عن نفسه عز وجل بهذه الصيغ جاء على

سبيل التعظيم، وهو كثير في كتاب الله تعالى[8]، وهذه من عادات العرب القولية أن يخبر الرجل ذو المكانة الرفيعة فيهم عن نفسه بضمير الجماعة المتكلمين[9]، ومع قصد التعظيم من وراء استخدام الضمير (نا) للإشارة إلى الله تعالى هناك مقاصد تداولية أخرى كثيرة نذكر منها:

ـ تكرار استعمال هذا الضمير مع أفعال مختلفة فيه تأكيد على تفرد الله جل ثناؤه بالعظمة والكبرياء، وفيه تناسب مع سياق السورة التي بدئت بقوله تعالى: «سبحان الذي أسرى» وهو تنزيه لله تعالى.

ـ الدلالة على شمولية قدرة الله تعالى؛ حيث إن تكرار استعمال الضمير "نا" مع عدة أفعال يشير إلى عظمة قدرة الله تعالى واتساعها لتشمل كل شيء، ويشير إلى أن كل تلك الأفعال إنما تتم بقوة الله وإحاطته الكاملة بكل شيء.

ـ الإشارة إلى تعدد صفات الله تعالى المشتركة في الفعل الواحد؛ مثلاً في الفعل "قَضَيْنَا" تجتمع صفات ثلاث هي القدرة، والعلم، والحكمة.

ـ التأكيد على وقوع الفعل المذكور، فأن ينسب الله جل ثناؤه الفعل إلى نفسه معبرا بضمير التعظيم(نا) فيه دلالة على أن الفعل واقع لا محالة.

ـ إبراز لأهمية الحدث وعظم شأنه، وذلك أن إضافة الفعل إلى الله تعالى فيه تعظيم للحدث لأن الفاعل هو الله تعالى الذي تولى هذا الفعل بنفسه.

ـ التأثير في نفس المتلقي: ويظهر أثر استعمال الإشارية"نا" في سياق هذا الخطاب الموجه إلى بني إسرائيل في أنه يخلق في نفسية المتلقي شعوراً بالرهبة والخوف من الله تعالى، ويرسخ في ذهن المخاطب مفهوم قدرة الله المطلقة.

وعلى ذلك فإن استخدام الإشارية "نا" للمفرد في القرآن الكريم في سياق الحديث عن الله عز وجل له دلالات عميقة تتجاوز مجرد الإحالة على ذات المتكلم، لتمتد إلى دلالات العظمة والقدرة ومعاني والشمول، فيعمق أثرها ووقعها في نفس المتلقي[10].

ـ تعدد الإحالات في سياق الآيات: مع الإحالة الرئيسة وهي إلى الله سبحانه وتعالى، نجد في سياق هذه الآيات عدة إحالات أخرى ضمنية باستخدام الضمير"نا" وهي تختلف بحسب الأفعال كالآتي:

ـ (قَضَيْنَا) فيه إحالة ضمنية إلى حكم الله في بني إسرائيل.

ـ (بَعَثْنَا) يتضمن إحالة ضمنية إلى إرسال الله العقاب على بني إسرائيل.

ـ (رَدَدْنَا) يتضمن إحالة ضمنية إلى إعادة شيء سُلب من بني إسرائيل.

ـ (أَمْدَدْنَاكُم) فيه إحالة ضمنية إلى نعم الله على بني إسرائيل الكثيرة والمتوالية غير المنقطعة وهو مدلول لفظة "الإمداد".

ـ (جَعَلْنَاكُمْ) إحالة إلى امتنان الله تعالى على بني إسرائيل بتكثير عددهم.

ـ (جَعَلْنَا) يتضمن إحالة إلى وعيد الله للمسيئين، بأن يجعلهم ملازمين لجهنم، وهي مصيرهم.

في ختام هذا العنصر لنا أن نسأل هذا السؤال؛ ما البعد التداولي لاستعمال الله تعالى أفعالا تمتاز بالقوة والشدة في هذه الآيات؟ والإجابة أن السياق العام للآيات يدور حول إفساد بني إسرائيل في الأرض، وعقاب الله لهم، فناسب ذلك أن تكون الأفعال المذكورة في هذه الآيات تحمل طابع الشدة، ولها الوقع الثقيل على نفس المتلقي، والأبعاد التداولية لهذه الشدة في الأفعال تتضمن ما يلي:

أ ـ حتمية الوقوع:

فهي ليست مجرد توقعات، بل أحكام إلهية مؤكدة، وهي معاني يحيل إليها مجيء هذه الأفعال مصرفة في زمن الماضي (قضينا، جعلنا، جعلناكم، رددنا، عدنا) كأنها وقعت للدلالة على حتمية وقوعها، وهذا يغلب في القرآن الكريم في ما "إذا كان مدلول الفعل من الأمور الهائلة المهدّدة المتوعّد بها"[11] والمقصود هنا بـ"الكتاب" التوراة؛ ويجوز أن يكون بعض كتبهم الدينية[12].

ب ـ إظهار القدرة الإلهية، حيث تبرز هذه الأفعال قدرة الله تعالى على إنفاذ وعوده وأحكامه دون عائق أو مانع.

ج ـ التحذير والإنذار؛ هذه الأفعال تحمل خطاب تحذير قوي لبني إسرائيل ولكل متلق للقرآن، مؤداه أن الإفساد في الأرض وخيمة عواقبه.

د ـ الربط بين السبب والنتيجة: تُظهر قوة الأفعال وشدتها العلاقة السببية المباشرة بين أفعال بني إسرائيل (الإفساد) والنتائج المترتبة عنها(العقاب الإلهي).

ـ إثارة مشاعر الخوف والرهبة في نفوس المتلقين، مما يجعل الخطاب أكثر تأثيراً.

2 ـ 1 ـ 2 ضمير واحد اتصل بالحرف في: لَنَا.

الآية التي ورد فيها هذا الضمير هي قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ ويتجلى البعد التداولي لهذه الإشارية الشخصية المتمثلة في ضمير المتكلمين في ما يلي:

أ ـ إظهار قدرة الله تعالى وتحكمه في جميع خلقه؛ فعبارة "عِبَادًا لَّنَا" تؤكد أن هؤلاء العباد المبعوثون على بني إسرائيل هم تحت قدرة الله وأمره، فالله تعالى يسخر من يشاء من عباده لإنفاذ أمره.

ب ـ الإشارة إلى شمولية العبودية لله تعالى؛ أي أن كل الخلق، قويهم وضعيفهم هم عباد لله تعالى، يستوي في ذلك المعاقِب والمعاقَب.

ج .الأبعاد الحجاجية والتي تتجلى في الحجة الضمنية التالية بما أن المعاقِبين هم عباد لله، فإن عقابهم عادل ومستحق، وهو في الأخير قدر من الله تعالى.

هـ . الأثر النفسي؛ والذي يتجلى في تعزيز الخشية من الله تعالى، حيث يذكّر عباد الله المخاطبين بأنه قادر على أن يسخر من يشاء من خلقه لإنفاذ عقابه.

2 ـ 2 الضمائر المستترة الدالة على الله عز وجل؛ هو ضمير واحد مستتر في الفعل المضارع (يَرْحَمَكُم) تقديره "هو" وهذا تعبير من الله تعالى عن نفسه بضمير الغائب في قوله: (عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ) ففي الآيات التي سبقت، كان الخطاب بضمير المتكلم ("قَضَيْنَا"، "بَعَثْنَا"، إلخ) وهذا الانتقال إلى ضمير الغائب يخلق تحولاً في نبرة الخطاب ومراده، ويتجلى البعد التداولي لهذا الضمير المستتر في الفعل (يَرْحَمَكُمْ) في ما يلي:

1 ـ تعزيز مفهوم الربوبية؛ لأن مجيء كلمة (رَبُّكُمْ) يلفت الأنظار والقلوب إلى علاقة الربوبية بين الله وعباده، ويذكّر المخاطبين أن الله ربهم ومالك أمرهم، ثم يتبع ذلك بذكر الفعل (يَرْحَمَكُمْ) إشارة إلى أن من صفات الرب الرحمة بعباده، فيجعل المخاطبين يراجعون أنفسهم في إطار علاقتهم بالله تعالى.

2 . التلطف في الخطاب؛ فمجيء (عَسَىٰ) مع (رَبُّكُمْ) يلي ذلك الفعل (يَرْحَمَكُمْ) يخفف من حدة الوعيد السابق، ويبسط الأمل والرجاء في رحمة الله تعالى.

3 ـ الأثر النفسي الذي تحدثه هذه الإشارية المتمثلة في الضمير المستتر المقدر في الفعل(يَرْحَمَكُمْ) يتجلى في ما يلي:

أ- التخفيف على المخاطبين:

فبعد توالي الأفعال المتصفة بالشدة، الحاملة معنى الوعيد، يأتي هذا الأسلوب ليخفف من حدة توتر المخاطبين، فاتحا بين أيديهم بابا للأمل في رحمة الله تعالى.

ب ـ تحفيز التدبر العقلي:

وذلك بدفع المخاطبين إلى التفكير في علاقتهم بربهم، ويحفزهم على مراجعة سلوكاتهم والتوجه نحو الإصلاح.

وخلاصة لما قلناه في استخدام ضمير الغائب في هذا السياق، أن له أبعادا تداولية عميقة فهو يخلق تحولاً في وجهة الخطاب، ويفتح أفقا جديدا للتأمل، ويعزز مفهومي الربوبية والرحمة، ويحقق موازاة بين الترهيب والترغيب؛ وهذا الأسلوب يبرز بلاغة القرآن المتفردة في توظيف الأساليب اللغوية لتحقيق أقصى تأثير نفسي وروحي على المتلقي (الانسان) الذي هو غاية الخطاب القرآني[13].

3.الإشاريات الشخصية الدالة على بني إسرائيل:

وهي ثلاثة أنواع من الضمائر: ضمائر اتصلت بالأفعال في: تُفْسِدُنَّ، تَعْلُنَّ، أَمْدَدْنَاكُمْ، جَعَلْنَاكُمْ، أَحْسَنْتُمْ، أَسَأْتُمْ، عُدْتُمْ، ضمائر اتصلت بالأسماء في: أَنْفُسِكُمْ، وُجُوهَكُمْ، رَبُّكُمْ، ضمائر اتصلت بالحروف في: عَلَيْكُمْ، لَكُمْ، ولم يرد من الضمائر المنفصلة، أو الضمائر المستترة ما يحيل إلى بني إسرائيل في هذه الآيات.

3 ـ 1 . ضمائر اتصلت بالأفعال في: تُفْسِدُنَّ، تَعْلُنَّ، أَمْدَدْنَاكُمْ، جَعَلْنَاكُمْ، أَحْسَنْتُمْ، أَسَأْتُمْ، عُدْتُمْ، ويلاحظ على هذه الأفعال أنها جاءت على ثلاثة أصناف؛ الفعلان(تُفْسِدُنَّ، تَعْلُنَّ) في سياق التوكيد، والمخاطب المباشر بهما بنو إسرائيل، والفعلان(أَمْدَدْنَاكُمْ، جَعَلْنَاكُمْ) مقترنان بضمير المتكلم يحيلان إلى الله تعالى في مقام التعظيم، واتصل بهما ضمير الجمع المخاطب في محل المفعولية يحيلان إلى بني إسرائيل، والأفعال (أَحْسَنْتُمْ، أَسَأْتُمْ، عُدْتُمْ) جاءت في سياق الشرط مسبوقة بـ (إنْ) الشرطية، اتصل بها ضمير الجمع المخاطب في إحالة إلى بني إسرائيل، وفي ما يلي دراسة تداولية لهذه الأفعال وما اتصل بها من ضمائر.

3 .1 .1 جاءت الأفعال المنسوبة مباشرتها إلى بني إسرائيل مسندة إلى ضمير المخاطب، ومقترنة بنون التوكيد الثقيلة، دلالة على حتمية وقوع هذه الأفعال بعلم الله تعالى، وقوله: (لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ) إخبار من الله تعالى لبني إسرائيل، يقول لهم إنكم ستعصون الله وتخالفون أمره في أرضه مرتين[14]، ودليل إخباره تعالى لهم هو تعدية الفعل (قَضَيْنَا) بـ (إلى) لتضمين الفعل معنى الإبلاغ[15]، وقوله: (لَتَعْلُنَّ) إخبار منه تعالى على سبيل التوكيد أنهم سيستكبرون على الله باجترائهم عليه استكبارا شديدا.[16]

يمكن القول إن الوظيفة التداولية لهتين الإشاريتين في الفعلين (تُفْسِدُنَّ، تَعْلُنَّ) هي التحذير والتوبيخ، وليس المقصود بهما الأمر أو الندب على حقيقته، فالسياق في هذه الآية هو سياق التحذير والإنذار.

3 .1 .2 الفعلان(أَمْدَدْنَاكُمْ، جَعَلْنَاكُمْ) هذان الفعلان في كليهما إحالة مزدوجة الأولى إلى المتكلم الله جل ثناؤه لاقترانهما بضمير الجمع المتكلم (نا)الذي يحيل إلى الله تعالى في مقام التعظيم، وإحالة أخرى إلى بني إسرائيل في محل المفعولية لاقترانهما بضمير الجمع المخاطب، والوظيفة التداولية لهذا الخطاب إظهار القدرة والامتنان والتفضل من الله تعالى على بني إسرائيل، وفيه دعوة لهم للتفكر في نعم الله تعالى، قصد الكف عن عصيانه عز وجل والتزام طاعته.

3 .1 .3 الأفعال (أَحْسَنْتُمْ، أَسَأْتُمْ، عُدْتُمْ) جاءت في سياق الشرط مسبوقة بـ (إنْ) الشرطية، إتصل بها ضمير الجمع المخاطب في إحالة إلى بني إسرائيل، وهذه الأفعال هي أفعال سلوكية جاءت في سياق التخيير، تستلزم إقامة مسؤولية بني إسرائيل على أفعالهم وتحملهم نتائجها، وهذه الصيغة الشرطية يصحبها تداوليا افتراض مسبق بعلم بني إسرائيل بمفهوم كل من

الإحسان والإساءة وموجباتهما ونتائجهما، وقدرتهم على الاختيار بين أفعال الإحسان والإساءة، وإلا لما كان للخطاب وظيفة تواصلية أو إبلاغية، إذ لا فائدة من إعطاء المتلقي معلومات إلا مع وجود افتراض قاعدة أو أساس مسبق يبنى عليه الخطاب.

إن بناء الخطاب على فعل الشرط وجوابه، له بعد تداولي حجاجي حيث يوجه نظر المتلقي وفهمه إلى إدراك المسؤوليتة الشخصية والجماعية عن أفعاله، مع التأكيد على عدل الله تعالى في إقرار العقاب على المخالفين.

3 ـ 2 الضمائر المتصلة بالأسماء المحيلة على بني إسرائيل: وهي الواردة في(أَنْفُسِكُمْ، وُجُوهَكُمْ، رَبُّكُمْ)

ففي (أَنْفُسِكُمْ) وردت هذه الاشارية في سياق الشرط في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ﴾ وفيه بعدين تداوليين؛ الأول هو التأكيد على مسؤولية الأفراد عن أفعالهم وتحملهم نتائجها، والبعد التداولي الآخر هو بعد انجازي يتمثل في حثهم على الإصلاح بذكر فعل الشرط وجوابه؛ الذي يكون من جنس فعل الشرط، وعودته بالنفع عليهم مدعاة لاجتهادهم في إتيان فعل الشرط الذي هو الإحسان، فالله تعالى لا تنفعه طاعة العبد ولا تضره معصيته.

3 ـ 3 ضمائر اتصلت بالحروف في: عَلَيْكُمْ، لَكُمْ؛ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا(5)ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا(6)﴾ وتفيد هذه الإشارية الشخصية المتمثلة في ضمير الجمع المخاطب (كُمْ) توجيه المتلقي (بني إسرائيل) إلى التفكر في عاقبة عصيانه، وأن ذلك العقاب إنما كان بعدل الله تعالى، الذي أمهلهم ومنحهم فرصة للإصلاح والاستقامة، وفي هذا السياق تذكير بتعظيم مقام الربوبية، والعلاقة هنا سلطوية، فالمتكلم (المُخاطِبُ) في مقام كهذا يجعل اللغة ملكا له وينصب نفسه في مكانة عالية، ويوجه خطابه إلى متلق أدنى منه رتبة، وفق مراجع يدركها المتلقي مسبقا[17]، وفي لفظة (عَلَيْكُمْ) التي هي حرف الجر (على) التي تحمل معنى الاستعلاء، والضمير(كم) ومن حيث الصنعة النحوية هو استعلاء معنوي، ودلالته التداولية تفيد القهر، وكل أشكال الاستعباد والإساءة لبني إسرائيل؛ كالقتل والأسر، بعد أن خلى الله بينهم وبين عدوهم وخذلهم[18].

4 .الإشاريات الشخصية الدالة على عباد الله تعالى المبعوثين على بني إسرائيل:

وهي نوعان ضمائر اتصلت بالأفعال، وضمير اتصل بالحرف، وهي تشير إلى قوة خارجية مبهمة لم يرد في السياق ما يحددها، هذه القوة الخارجية ستباشر عقاب الله تعالى لبني إسرائيل، وإنما عبر عنها السياق بقوله تعالى (عِبَادا لَنَا) ولا يعنينا في هذا المقام ترجيح قول

من أقوال المفسرين في تحديد هذه الجهة أو هؤلاء العباد كما قال الرازي: « اعلم أنه لا يتعلق كثير غرض في معرفة أولئك الأقوام بأعيانهم بل المقصود هو أنهم لما أكثروا من المعاصي سلط الله عليهم أقواماً فقتلوهم وأفنوهم.»[19]، وإنما نكتفي ببيان الأثر التداولي للإشاريات المعبرة عنها وهي؛ ضمائر اتصلت بالأفعال، وضمير اتصل بالحرف، ولم يرد من الضمائر المنفصلة أو المتصلة بالأسماء، ما يحيل على عباد الله المبعوثين على بني إسرائيل.

قبل أن نشرع في بيان البعد التداولي لهذه الإشاريات لنا أن نسأل عن دلالة توجيه الخطاب الإلهي لبني إسرائيل في صيغة إخبار، مع اسخدام لفظة (عِبَادا لنا) إشارة إلى الذين سيبعثهم الله تعالى عليهم؟ والجواب أن الخطاب بهذه الصيغة يكشف عن عدة مضامين وأبعاد هي:

أ ـ أنه يحدد طبيعة العلاقة بين أطراف الخطاب وهما: المتكلم بالحق (الله تعالى) صاحب السلطان المطلق على جميع خلقه، والمالك القدرة على تسخير عباده بسلطانه المطلق عليهم ومشيئته، وطرف الخطاب الآخر هم بنو إسرائيل يظهرون في الخطاب في موقف المساءلة، وتحمل تبعات إفسادهم وعلوهم في أرض الله تعالى، والخطاب هنا تم إبلاغه لبني إسرائيل ويدل على ذلك كما قلنا آنفا تعدية الفعل قضينا بالحرف(إلى) لتضمين الفعل معنى الإبلاغ[20]، وقد تضمن الخطاب ذكر طرف غائب، هم العباد المبعوثون على بني إسرائيل، وقد نسبهم الله تعالى إلى نفسه نسبة ملكية فعبر عنهم بقوله (عبادا لنا) فأقر لهم العبودية وأقر لذاته العظمة حين استخدم ضمير الجمع المتكلم(نا)، وهم في هذا الخطاب يمثلون أداة لإنفاذ حكم الله تعالى في بني إسرائيل[21].

ب ـ أنه يؤدي وظيفة تربوية؛ وهي تذكير بني إسرائيل بعدل الله تعالى، وإشعارهم بالمسؤولية الجماعية على عصيانهم، ويعلمهم الانقياد لأوامر الله تعالى والشعور بالضعف أمام قدرة الله على تسخير من يشاء من عباده لإنفاذ أمره.

ج ـ يتضمن بعدا حجاجيا؛ حيث يبدأ الخطاب بذكر سبب منطقي لمباشرة عقاب الله تعالى وهو الإفساد والعلو في أرض الله تعالى، فيكون العقاب نتيجة حتمية لذلك العلو وذلك الفساد.

4ـ1 ضمائر اتصلت بالأفعال في: جَاسُوا، يَسُوؤُا، يَدْخُلُوا، دَخَلُوه، يُتَبِّرُوا، عَلَوْا.

إن الضمير المتمثل في (واو الجماعة) المتصل بهذه الأفعال الست يؤدي وظيفة الإحالة النصية على مرجع مذكور مسبقا هو (عباد الله) فهي من نوع الإحالة داخل اللغة؛ تحيل على عناصر لغوية سابقة في النص[22] حيث سبق في الآيات ذكر عباد الله المبعوثين على بني إسرائيل، وهذه الاحالة تؤسس لبداية الأحداث وسيرها، متضمنة قوة إنجازية تقريرية، ومعنى

جاسوا؛ من الجَوْسِ وتعني الرتدد في الإغارة، وعن ابن عباس أنها بمعنى فتشوا هل بقي أحد ممن لم يُقتل[23]، ويتبروا بمعنى ليهلكوا كل شيء غلبوه واستولوا عليه[24].

4.2 ضمير واحد اتصل بالحرف في: عَلَيْهِم.

وهو ضمير الجمع الغائبين الذي يحيل على عباد الله تعالى المبعوثين على بين إسرائيل في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾، وفي هذه الإشارية أبعاد تداولية كثيرة فهي تذكر بني إسرائيل بنعمة الله تعالى عليهم؛ حيث منحهم فرصة للإصلاح، وأمدهم بالقوة وكَثَّرَ عددهم، فقهروا عدوهم، وكانت لهم الدولة والرجعة وذلك معنى الكرة[25]، والبعد التداولي لهذه العبارة؛ هو تحذير الله تعالى لبني إسرائيل من سوء استخدام هذه النعمة، بعد أن عاينوا فقدها نتيجة عصيانهم.

إن بين الإشاريتين الواردتين في لفظتي(عَلَيْكُمْ) و(عَلَيْهِمْ) رابط مشترك يجعل من المخاطبين وهم بني إسرائيل، والمخبر عنهم؛ وهم عباد الله سواء في العبودية لله تعالى الذي يسلط من شاء من خلقه لإنفاذ حكمه على من شاء، أما اختلافهما فلفظة (عَلَيْكُمْ) جاءت في سياق التوبيخ والذم، ولفظة(عَلَيْهِمْ) جاءت في سياق المنح والنعمة والعطاء.

الفرع الثالث: الإشاريات الزمانية الدالة على وعد الله تعالى

وهي نوعان:

1 ـ ثلاثة ضمائر مستترة في الأفعال الماضية: جاء، كان، جاء، وفاعلها ضمير مستتر تقديره(هو) يحيل إلى الوعد المقدر على بني إسرائيل، الذي هو حدث زماني، غير معرف وغير محدد .

2 ـ ألفاظ لها دلالة زمانية تشير إلى فترات أو محطات زمانية؛ وهي" مَرَّتَيْن، أولاهما، الآخرة، أول مرة"

أ ـ الاشارية" مرتين" في قوله تعالى:﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾تشير إلى حدثين مستقبليين يمثلان جزء من وعد الله تعالى لبني إسرائيل، له بعد تداولي فمن شأنه أن يخلق ترقباً وتوقعاً لدى المتلقي.

ب ـ الإشاريتين" أولاهما، الآخرة" في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ و ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾تحدد محطات زمنية مفصلية في تاريخ بني إسرائيل.

وخلاصة التحليل التداولي للاشاريات الزمانية في هذه الآيات أنها تسهم في بناء التسلسل الزمني للأحداث، وهو ما يدعم مصداقية الخطاب، ويؤكد على حتمية الوقائع المستقبلية المخبر عنها حيث جاءت في سياق التوكيد.

ثالثا: الإشاريات المكانية الدالة على المسجد

وهو ضمير (الهاء) متصل بالفعل الماضي "دَخَلُوهُ" يحيل على المسجد، ووظيفة هذه الإشارية أنها تربط الأحداث الزمانية بمكان محدد، فتزيد من واقعية الخطاب بربط السياق التاريخي بمكان محدد معروف وهو بيت المقدس.

الخاتمة

نصل في خاتمة هذا المقال إلى عرض للنتائج المتوصل إليها، وذكر لجملة من التوصيات.

أولا: النتائج

01 ـ أسهمت الإشاريات بتنوعها في هذه الآيات من سورة الإسراء في التماسك النصي، وأدت دورا مهما في توصيل رسالة الوعد والوعيد لبني إسرائيل؛ حيث بينت الترابط الحتمي بين الأفعال والنتائج، مما يجعل الرسالة أكثر تأثيراً وفعالية في توجيه سلوك المخاطبين وتحذيرهم من عواقب أفعالهم.

02 ـ أسهمت الإشاريات الواردة في هذه الآيات في تشكيل بنية حجاجية متماسكة تربط بين الأفعال (الإفساد) والنتائج (العقاب)، مما يعزز القوة الإقناعية للخطاب.

03 ـ أسهمت الإشاريات في تعزيز مصداقية الخطاب وقابليته للتحقق من خلال ربطه بأحداث تاريخية وأماكن معروفة.

04 ـ عملت الإشاريات على إحداث تأثير نفسي عند المتلقي من خلال آلية التحذير والتذكير، مما يسهم في توجيه السلوك المستقبلي للمخاطبين.

ثانيا: التوصيات

وهي توصيات تتوجه إلى الباحثين المهتمين بالتحليل التداولي للقرآن الكريم:

01 ـ ربط البحث التداولي في القرآن الكريم بالمواضيع ذات الحضور الإعلامي الراهن، وهو ما يعزز من أصالة البحوث وجديتها، وربط الواقع المعيش بالقرآن الكريم في أنماط معاصرة من البحث العلمي اللغوي.

02 . النظر إلى السياق نظرة متكاملة تشمل السياق التاريخي والاجتماعي للآيات القرآنية زمن نزولها، مما يسهم في ربط المعنى التداولي للآيات القرآنية بأسباب نزولها.

03 ـ التكامل المعرفي الذي يجمع بين أدوات التحليل التداولي، وقواعد وأصول التفسير التراثية، وعلوم اللغة العربية المختلفة.

الهوامش والإحالات:

[1] Definition Of English Deixis, on https://www.oxfordlearnersdictionaries.com/definition/english/deixis 16/10/2024,14:30

[2] جورج يول، التداولية، تر قصي العتابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2010م، ص27.

3 نعمان بوقرة، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، عالم الكتب الحديث، جدارا للكتاب العالمي، عمان، الأردن، ط1، 2009م، ص87.

[4] الأزهر الزناد، نسيج النص- بحث في ما يكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1،1993م، ص116.

[5] عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ط1، 2004م، ص80.

[6] نفس المرجع، ص97.

[7] Dominique Maingueneau, linguistique pour le texte littéraire, Nathan, Paris, France,4e édition, 2003, p16

[8] السمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون تح الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ط1،1986م، ج8، ص366.

[9] أحمد بن فارس، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق أحمد حسن نسيج، دار الكتب العلمية، لبنان، ط 1، 1997م، ص 162.

[10] هنية عريف، العدول عن المثنى إلى المفرد أو الجمع، وعكسه في القرآن الكريم دراسة دلالية، مجلة الآداب للدراسات اللغوية والأدبية، الجزائر، العدد12، ديسمبر2021، ص166.

[11] بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر، ط1،1957م، ص431.

[12] الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ط1، 1984م، ج15، ص 28.

[13] قويدر قيطون، الاعجاز النفسي للخطاب القرآني دراسة استقرائية تحليلية، أطروحة دكتوراه، قسم الآداب واللغة العربية، كلية الآداب واللغات، جامعة قسنطينة1، الجزائر، 2015م، ص512.

[14] محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، مصر، ط1، 2001م، ج14، ص455.

[15] الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج15، ص28.

[16] محمد بن جرير الطبري، جامع البيان، ج14، ص456.

[17] عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص97.

[18] فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1،1420هـ ، ج20، ص 299.

[19] نفس المصدر، ج20، ص156.

[20] الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج15، ص28.

[21] محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، دط، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، دت. ج8، ص335.

[22] محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1991م.، ص35.

[23] أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، تح صدقي محمود العطار وآخرون، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 2000م.، ج7، ص6.

[24] جار الله الزمخشري، تفسير الكشاف، تح محمد حسين أحمد، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1987م.، ج2، ص650.

[25] محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تح أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط2، 1964م، ج10، ص216.

قائمة المصادر والمراجع:

1. أبو إسحاق الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، تح عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب بيروت، ط1، 1988.
2. أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، تح صدقي محمود العطار وآخرون، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1،2000م.
3. أحمد بن فارس، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كالمها، تحقيق أحمد حسن نسيج، دار الكتب العلمية، لبنان، ط 1، 1997م.
4. الأزهر الزناد، نسيج النص - بحث في ما يكون به الملفوظ نصا . المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1،1993.
5. بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر، ط1، 1957م.
6. جار الله الزمخشري، تفسير الكشاف، تح محمد حسين أحمد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1،1987م.
7. جورج يول، التداولية، تر قصي العتابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2010م.
8. نعمان بوقرة، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، عالم الكتب الحديث، جدارا للكتاب العالمي، عمان، الأردن، ط1، 2009م.
9. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ط1، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، 2004.
10. فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1420ه.
11. قويدر قيطون، الاعجاز النفسي للخطاب القرآني دراسة استقرائية تحليلية، أطروحة دكتوراه، قسم الآداب واللغة العربية، كلية الآداب واللغات، جامعة قسنطينة1، الجزائر، 2015م.
12. السمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون تح الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ط1، 1986م.
13. الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير ، الدار التونسية للنشر، تونس، ط1، 1984م.
14. محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، دط ، دت.
15. محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تح أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط2، 1964م.
16. محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح عبد الله بن عبد المحسن التركي ، دار هجر، القاهرة، مصر، ط1، 2001.
17. محمد خطاب، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1،1991م.

18. هنية عريف، العدول عن المثنى إلى المفرد أو الجمع، وعكسه في القرآن الكريم دراسة دلالية، مجلة الآداب للدراسات اللغوية والأدبية، الجزائر، العدد12، ديسمبر2021، ص151 ـ182.

19. Dominique Maingueneau, linguistique pour le texte littéraire, 4e édition, Nathan, Paris, France, 2003

20. https://www.oxfordlearnersdictionaries.com/definition/english/deixis 16/10/2024,14:30